أدلة اعتبار فهم السلف(2)
(دليل النظر، ودليل الخصوصية)

أ. علي عبدالسلام اشميلة الجامعة الأسمرية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين، وبعد:

فيجيئ هذا البحث استكمالا لسابقه الذي ذكرت فيه الدليلين الأولين من أدلة اعتبار فهم السلف: (دليل النص، ودليل الأثر)، ونبين فيه- بعون الله وتوفيقه- دليلي النظر والخصوصية.

خطة البحث:

تقوم الخطة على تقسيم البحث إلى مقدمة وصلب وخاتمة.

فالمقدمة ما سلف، والصلب مبحثان: لكل دليل مبحث، والخاتمة لذكر النتائج.

المنهج المتبع:

المنهج الذي اخترته قائم على العرض والتتبع للأقوال والأدلة، كل حسب ما تقتضيه طبيعة المبحث، ثم محاولة مراجعة ذلك ومناقشته، للخروج ببعض ملحوظات واستنتاجات.

المبحث الأول: دليل النظر:

يقوم دليل النظر الذي به يعرف الاعتبار لأقوال السلف واجتهاداتهم على أمور نذكرها مختصرين:

– الأمر الأول: إن السلف هم من تلقى العلم والشريعة عن النبي- ﷺ-، ثم نقلوا ذلك إلى من جاء بعدهم؛ فالطعن في أفهامهم جملة طعن في الشريعة نفسها؛ لأنه لا يؤمن عندها أن يكونوا قد نقلوا غير

ما أراد الله وبلغ رسوله الكريم- ﷺ-، وفي هذا منافاة لكون الشريعة معصومة محفوظة، فلزم من ذلك الاعتبار لأفهام الصحابة خاصة، وأفهام السلف- رضوان الله عليهم- في الجملة.

يقول أبو زرعة الرازي- جزاه الكريم الجزاء الأوفى-: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله- ﷺ- فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول- ﷺ- عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله- ﷺ-، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[1].

- الأمر الثاني: إن السلف- رضوان الله عليهم- قد زكاهم الله ورسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- إذ جاءت النصوص-كما تقدم- بذلك، ووثق النبي الكريم بأفهامهم، ورباهم علماً وعملاً في مدرسته، وأمام ناظريه، فعدم الاعتبار لأفهامهم جملة تكذيب لله ورسوله، وردّ لشهادتهما، وطعن في تربيتهما، فلزم تصديقاً للوحيين، الاعتبار لما اعتبره رب العالمين، ورضيه إمام المتقين.

- الأمر الثالث: إن من جاء بعد الصحابة- رضوان الله عليهم- إنما تلقى العلم والفقه، وبيان معاني القرآن والسنة، وأصول الشريعة وأحكامها من الصحابة، فإذا كانت أفهام الصحابة غير معتبرة ولا معتداً بها، فإن أفهام التابعين لا اعتبار لها كذلك؛ لأن التابعين عن الصحابة أخذوا، ثم نقلوا، ومنهم تعلموا، وبمنهجهم وفهمهم فقهوا، وهكذا فيمن يجيء بعد التابعين إلى يوم القيامة، وعندها لا اعتداد ولا اعتبار لفهم أحد، إذ الأفهام جميعها مبدؤها ومنطلقها ومآلها ومصدرها الأول فهم الصحب الكرام عن رسول الله- ﷺ-، فإسقاط ذلك الفهم هدم للبنيان كله؛ لأن قيامه إنما كان به، إذ هو ركنه وقاعدته وعموده.

- الأمر الرابع: إنه لإقامة الدين، وتطبيق الأحكام على الوقائع والنوازل لا بد من وعي وفهم، وهذا الفهم إما أن يكون فهم السلف، أو فهم غيرهم، ولا يصح عقلاً أن يُعتدّ بفهم غيرهم وتُترك أفهامهم، مع ما سبق لهم من الشهادة والتزكية، وفضل الصحبة، والملازمة، وما يتبع ذلك من معاصرة الحوادث، ومعرفة بالمقاصد والأسرار، ومباشرة التلقي.

يقول ابن تيمية-كتبه الله من أهل الرحمة-: «ولا تجد إماماً في العلم والدين كمالك، والأوزاعي، والثوري، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ومثل الفضيل بن عياض، وأبي

(1) الكفاية في علم الرواية، لأحمد بن علي بن ثابت أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق أبي عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، ص49، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، وانظر بحث الدكتور نايف الحمد، فضائل الصحابة ﷺ، ص5.

سليمان، ومعروف الكرخي، وأمثالهم، إلا وهم مصرحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعلم الصحابة، وهم يرون أن الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضائل والمناقب»[1].

ويقول ابن حجر- رحمه الله تعالى، وأسكنه ما أسكن حارثة-: «وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، لمشاهدة رسول الله- ﷺ-، أما من اتفق له الذب عنه، والسبق إليه بالهجرة، أو النصرة، أو ضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحدٌ ممن يأتي بعده، لأنه ما من خصلة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها بعده، فظهر فضلهم»[2].

وفي ذات المعنى يقول النووي- جعل الله كتابه في عليين-: «وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[3]، ولعل خير ما نختم به هذا الأمر ما قاله ابن تيمية- رحمه الله- في علم الصحابة وعملهم، وما امتازوا به حتى استحقوا بفضل الله وكرمه وراثة المصطفين الأخيار، يقول- عليه من الله الرحمات-: «ومن المستقر في أذهان المسلمين أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت، فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها، وزكى الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة في الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله- تعالى- فيهم: **(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ)**[4]، فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله، فبالبصائر يدرك الحق، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين، والبصر بالتأويل؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصاً»[5].

المبحث الثاني: دليل الخصوصية:

---

(2) شرح العقيدة الأصفهانية، تحقيق محمد بن رياض الأحمد، ص180، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425 هـ.

(1) فتح الباري، ج7، ص7، عند شرحه حديث «يأتي على الناس زمان ...»، رقم 3649.

(2) شرح النووي على مسلم، ج16، ص93، عند شرحه حديث «لا تسبوا أصحابي»، وانظر: شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج1، ص180، برقم 317.

(3) الآية رقم 45 من سورة ص.

(4) مجموع الفتاوى، لتقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ابن تيمية) تحقيق عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، ، ج4، ص92، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط1416هـ-1995م ، وانظر: بحث الدكتور الدميجي، ص46.

اختص الصحابة- رضوان الله عليهم- بخصائص لم يشاركهم فيها غيرهم، جعلت فهمهم مقدماً على فهوم من عداهم، ومن أهم تلك الخصائص:

1- ما تقدم من تزكية المولى- ﷻ- لهم علماً وتقىً، جماعات ووحداناً، وتزكية الرسول- ﷺ-، وثقته في أفهامهم، والاعتماد عليها في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وبيان الدين، وتعليم الشريعة، ثم تزكية بعضهم بعضاً، وقد تقدم تفصيل ذلك كله.

2- امتاز الصحابة عن غيرهم بتلقي بيان معاني القرآن، وبيان ألفاظه من النبي- صلى الله عليه وآله وسلم-، يقول ابن تيمية- رحمه الله-: «يجب أن يعلم أن النبي- ﷺ- بيّن لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: **(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)**[1] يتناول هذا وهذا؛ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو إن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من جاء بعدهم»[2]؛ ولهذا قلّ خطؤهم في فهم النص القرآني الذي هو ركيزة فهم الشريعة الأولى، وعمودها وركنها الأساس، على خلاف ما هو واقع لمن جاء بعدهم، إذ كثر فيهم الخطأ خصوصاً عند المتأخرين، ويتأكد هذا فيمن فتن بالفلسفات الوافدة، والمذاهب المستحدثة، والأفكار الدخيلة، يقول ابن تيمية- رحمه الله- في هذا: «فالذين أخطأوا فيهما- أي الدليل والمدلول- مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذاهب باطلة، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا تفسيرهم...، وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل كان مبتدعاً؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله»[3].

3- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بسماعهم الحديث النبوي من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرة دون واسطة، أو بسماعه ممن سمعه منه مباشرة، وفي هذا تحققهم من صحة نسبة القول إلى المصطفى- صلوات ربي وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله-، فأحاديثهم كلها صحيحة

---

(1) الآية رقم 44 من سورة النحل.

(2) مقدمة في أصول التفسير، ج1، ص9،10، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط 1400 هـ-1980م، وهو في مجموع الفتاوى، ج13، ص33، وانظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني، لأبي المعالي محمود شكري الألوسي، تحقيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، ج1، ص125، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1422 هـ-2001م.

(3) انظر: مقدمة في أصول التفسير، ج1، ص38.

نظراً وواقعاً، لا لبس في ذلك ولا اضطراب[1]، ثم فيه إمكانية التحقق من الفهم، إما بسؤال الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- عما خفي أو أشكل، أو بالاستعانة بقرائن الأحوال، ومصاحبات الخطاب، وهذا أمر في غاية الأهمية، إذا علمنا أن جلّ الاختلاف في الاجتهاد إنما نشأ إما بسبب الخلاف حول صحة النص محل الدليل، أو بسبب الاختلاف حول معناه من جهة العموم والخصوص، والتقييد والإطلاق، وما شابه ذلك، كمعرفة هل الأمر للندب، أم للوجوب، وهل النهي للكراهة أم للتحريم، وجلّ هذا يحصل اليقين فيه بمعاينة الخطاب ساعة الوقوع، وتلك خصيصة لم تكن إلا للصحب الكرام، ويتأكد هذا في حق أولئك الذين كثرت ملازمتهم لرسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد كان ذلك معروفاً حتى عند الصحابة أنفسهم؛ إذ يفرقون بين من كان ملازماً لرسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وبين من ينصرف إلى ما ينصرف إليه الناس من الضرب في الأرض، والصفق في الأسواق، والانشغال بالقوت زراعة، كما هو حال الأنصار، أو تجارة، كما كان غالب حال إخوانهم المهاجرين، ولهذا كان الملازمون- كأبي هريرة، وأنس، وعبد الله بن مسعود ﷺ- أكثر رواية للحديث، ومعرفة بالأحكام من غيرهم، وقد قال أبو موسى لعقبة بن عمرو لما ذكر عنده ابن مسعود ﷺ بقوله: «ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد- ﷺ- من عبد الله بن مسعود»، فقال له أبو موسى: «إن تقل ذلك فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل»[2]، وفي رواية أبي الأحوص قال: كنا في دار أبي موسى مع نفر من أصحاب عبد الله وهم ينظرون في مصحف، فقام عبد الله، فقال أبو مسعود: «ما أعلم رسول الله- ﷺ- ترك بعده أعلم بما أنزل الله من هذا القائم»، فقال أبو موسى: «لئن قلت ذاك، لقد كان يشهد إذا غبنا، ويؤذن له إذا حجبنا»[3].

وعلى الرغم من تميز من لازم النبي- ﷺ- بهذه الخصيصة دون غيره؛ فإن غير المخصص إذا كان من الصحابة- رضوان الله عليهم- أو التابعين، أمكنه إن لم يسمع بنفسه أن يسمع ممن سمع من النبي- ﷺ- مباشرة، وهم أهل الثقة والفهم والمعرفة، ويمكنه كذلك أن يستفهم منه عما يزيده معرفة وفهماً بمعنى الخطاب ومدلول النص، وهذا إنما يقع للصحابة والتابعين دون من جاء بعدهم، يقول البراء بن

---

(1) انظر: إعلام الموقعين، ج6، ص21-23.

(2) أخرجه الحاكم، ج3، ص357، برقم 5381، ذكر مناقب عبد الله بن مسعود، وقد سكت عنه الذهبي، والطبراني في الكبير، ج9، ص90، برقم 8514، وانظر: إعلام الموقعين، بتحقيق مشهور، ج2، ص28، هامش رقم 5.

(3) صحيح مسلم، ج4، ص1911، برقم 113، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه.

عازب- ﷺ-: «ليس كلنا سمع حديث رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، كانت لنا ضيعة وأشغال، ولكن الناس كانوا لا يكذبون يومئذٍ فيحدث الشاهد الغائب»[1].

وقريب من هذا المعنى ما يشير إليه ابن تيمية- رحمه الله- من تميز فهم الصحابة، يقول في ذلك: «وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مراده ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك»[2].

4- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بخصيصة لم تكن إلا لهم، وهي مشاهدة النبي- ﷺ- لما يقع منهم من فعل، أو اجتهاد، والتصويب لهم، أو إقرارهم، وفيه فائدتان:

- الأولى: معرفة الحكم في النازلة محل النظر، والواقعة محل الاجتهاد.

- الثانية: معرفة ما وراء ذلك الحكم من علل ومقاصد، وما قام عليه من منهج ودليل.

5- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بأنهم الجيل الذي تربى على يدي رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، وأمام ناظريه، بل إنهم الجيل القرآني الذي صنع على عين الرحمن- جل وعلا-، فإذا ما وقع أمر هنا، أو حدثت حادثة هناك، إما أن ينزل وحي السماء، يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، وإما أن يرشد رسول رب العالمين- صلى الله عليه وآله وسلم- ببيان الحكم، أو بدعوة مفتوحة لها أبواب السماء، وخزائن الملكوت، تذهب الحيرة وتنزل السكينة، تهدأ بها الأنفس، وتطمئن القلوب.

6- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بأنهم الجيل الوحيد الذي كان فيهم رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وكفى بها ميزة، وفي هذا من الخير:

أ- أن الصحابة- رضوان الله عليهم- تربوا على يدي رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وفي هذا من الخير ما سبقت الإشارة إلى بعضه.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك، ج1، ص216، برقم 438، فصل في توقير العالم، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(2) الفتاوى، ج19، ص200، وانظر: فهم السلف، للدكتور الدميجي، ص39- 40.

ب- أن وجود رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أمان للأمة وعصمة لها، من أن تحل قارعة أو ينزل عذاب، قال تعالى: **(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)**[1]، فإذا كان هذا عاصماً من أن يصيب المشركين عذاب وهم الأعداء، فما ظنك بالأنصار والأولياء؟

ج- أن وجود الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- بين ظهراني القوم منحهم خصيصة عظيمة، تتمثل في دعائه لهم، واستغفاره، مع الإرشاد والتوجيه، قال تعالى: **(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً)**[2]، وقصة ذلك الشاب الذي جاء يطلب الإذن بمواقعة الفاحشة، وتهذيب الرسول- ﷺ- إياه، ثم دعوته بتلك الدعوة النازلة برداً وسلاماً، وأمناً وإيماناً، وطهراً وعفافاً، معروفة مشهورة[3].

7- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بعلمهم بمقام الحال، من أسباب نزول، وأسباب ورود، وما كان عليه أهل الجاهلية من عوائد وأعراف، وتلك المعرفة في غاية الأهمية، إذ بها تتبين ملابسات الخطاب، وتعرف القرائن المعينة على فهم النص، فهماً سليماً غاية في الدقة والوضوح.

فالصحابة- رضوان الله عليهم- كانوا أعرف الناس بأسباب نزول النصوص القرآنية، وورود الأحاديث النبوية؛ لأن تلك النصوص- وببساطة شديدة- إنما نزلت خطاباً لهم ابتداءً، ومعالجة لوقائع وأحداث تقع لأفرادهم أو جملتهم، يقول ابن مسعود- ﷺ-: «والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[4].

---

(1) الآية 33 من سورة الأنفال.

(2) الآية 64 من سورة النساء.

(3) جاء في الحديث أن فتىً شاباً أتى النبي- ﷺ- فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه، مه، فقال: «ادنه»، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، وذكر البنت والأخت والعمة والخالة، والشاب يجيب في كل: لا والله، جعلني الله فداءك، ثم وضع الكريم يده الشريفة عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

أخرجه الطبراني، ج8، ص162، برقم 7695، وأحمد في المسند، ج36، ص545، برقم 22211، حديث أبي أمامة الباهلي، والبيهقي في شعب الإيمان، ج4، ص362، برقم 1830.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ,ج4 , ص 1912, برقم 4716, كتاب فضائل القرآن , باب القراء من أصحاب النبي- ﷺ-, و أخرجه مسلم , ج4 , ص 1913, برقم 2463, كتاب فضائل الصحابة , باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه, انظر: إعلام الموقعين , بتحقيق مشهور , ج3, ص 537.

ويقول الإمام عليّ-كرم لله وجهه-: «سلوني عن كتاب الله؛ فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل»[1]، وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- لما بعثه الإمام عليّ- كرم الله وجهه- للخوارج «أي أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل»[2].

ويقول جابر- ﷺ-: «كنا نعزل والقرآن ينزل على رسول الله- ﷺ-، فلو كان شيء ينهى عنه لنهى عنه القرآن»[3]، وهذه أمنا المبرأة المطهرة- رضي الله عنها وشفّعها فينا- يقول عنها ابن أبي مليكة: إنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه»[4].

وفي هذا المعنى يقول الشاطبي-رحمه الله-: «والثاني من مرجحات الاعتماد على بيان الصحابة مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب النزول، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فمتى جاء عندهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية»[5].

8- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بمعرفتهم بالمقاصد المراعاة، وعلمهم بالمصالح المعتبرة، وإدراكهم للقواعد التي عليها بناء الاجتهاد والفتوى، ففيهم نزل (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[6]، وهم المخاطبون بـ(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)[1]، ولأحدهم جاء الخطاب «افعل ولا حرج»[2].

---

(1) الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الهاشمي المعروف بـ(ابن سعد)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج2، ص257، دار الكتب العلمية ط1/1410هـ – 1990م.

(2) طبقات ابن سعد، الجزء المتمم، تحقيق محمد بن صامل السلمي ، ج1، ص180، 181، برقم 91،92، ط1/1414هـ- 1993م.

(3) رواه البخاري في صحيحه، ج5، ص1998، برقم 4911، كتاب النكاح، باب العزل، ومسلم، ج2، ص1065، برقم 1440، كتاب النكاح ، باب حكم العزل.

وقد علق عليه ابن القيم- رحمه الله- بقوله: «وهذا من كمال فقه الصحابة وعلمهم، واستيلائهم على معرفة طرق الأحكام ومداراتها، وهو يدل على أمرين، أحدهما: أن أصل الأفعال الإباحة ولا يحرم منها إلا ما حرمه الله على لسان رسوله، الثاني: أن علم الرب تعالى بما يفعلون في زمن شرع الشرائع، ونزول الوحي وإقراره لهم عليه دليل على عفوه عنه».

إعلام الموقعين، بتحقيق مشهور، ج4، ص259.

(4)أخرجه البخاري في صحيحه، ج1، ص51، برقم 103، كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه.

(5) الموافقات، ج4، ص128.

(1) الآية رقم 78 من سورة الحج.

يضاف إلى هذا ما يحصل ويترسخ في الأذهان والنفوس من المشاهدة والمعايشة، تلك التي جعلت الصديقة تعلم من حال زوجها سيد الخلق- صلوات ربي وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله الطيبين- أنه «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»[3]، وجعلت الحبّ ابن الحبّ يدرك كم هي عظيمة حرمة النفس الإنسانية «أقتلته وقد قالها؟!»[4] (أفلا شققت على قلبه»[5]، «كيف تصنع بلا إله إلا الله إن جاءت يوم القيامة؟»[6] وغير ذلك كثير.

فقد عاش القوم وعايشوا الشريعة واقعاً يُسمع ويُرى، قرآناً من فِي رسول الرحمة، وصلصلة جرس من شدة ما يلقى، وعرقاً يتصبب على أكرم جبين، إلى غير ذلك من مشاهدة أحواله- ﷺ- وهو يأكل ويشرب، ويدعو ويخطب، ويصلي ويصوم، ويحج ويجاهد، ويلاعب الصبية، وتدمع منه العين، ويحزن القلب الرحيم، مجادلاً بالتي هي أحسن، داعياً إلى الله، هادياً إلى صراط مستقيم، فإن لم يشاهدوا سألوا، فقد كان القوم أحرص الناس على معرفة ما كان عليه أمر نبيهم- ﷺ- كله.

9- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بما يمكن تسميته سلامة الذوق، وصدق الحاسة، إذ يحصل من كثرة المعايشة، وطول الممارسة، وما يصحبهما من الملاحظة والتتبع، ذوق يركن إليه، وحاسة يعتمد عليها، في معرفة الحق من الباطل، والصحيح من السقيم، وهذا أمر يعرفه أهل كل صنعة وفن؛ إذ كثيراً ما يعتمدون على ذائقتهم في بناء الأحكام، أو معرفة مقدماتها، فالحداد والنجار والصيرفي والمربي وصاحب كل صنعة، يمكنه أن يعرف بمجرد النظر مدى الدقة والإتقان فيما يقع تحت بصره مما هو داخل في صنعته، وذلك إنما ينغرس في النفس من طول المعاشرة والممارسة-كما تقدم-، وإذا كان هذا

---

(2) الآية رقم 185 من سورة البقرة

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، ج1، ص43، برقم 83، كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة، وأخرجه مسلم، ج2، ص948، برقم 1306، كتاب الحج ، باب من حلق قبل النحر ونحر قبل الرمي.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، ج3، ص1306، برقم 3367، كتاب المناقب، باب صفة النبي- ﷺ-، ومسلم، ج4، ص1813، برقم 2327، كتاب الفضائل ، باب مباعدته- ﷺ- للآثام.

(5) رواه البخاري في صحيحه بلفظ «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله»، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، ج4، ص1555، برقم 4021، كتاب المغازي ، باب بعث النبي- ﷺ- أسامة إلى الحرقات من جهينة، وأخرجه مسلم، ج1، ص96، برقم 158، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله.

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، وهو جزء من الحديث في الهامش السابق.

(7) أخرجه مسلم، ج1، ص97، برقم 160، عن جندب بن عبد الله البجلي، كتاب الإيمان ، باب حرمة قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله.

في أهل الصناعات، فكيف بذوق من تربى في مدرسة القرآن، وتتلمذ على يدي خير الأنام، مع استعداد فطري، وحرص على سلامة التلقي وجودته، تصونه عن الآفات معرفةٌ بلغة الخطاب وعوائد المخاطبين[1]، وهي العاشرة؟

10- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بعلمهم باللغة التي بها القرآن أنزل (**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً**)[2]، (**قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**)[3]، (**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**)[4]، (**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**)[5]، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ثم هم أعرف الناس باللغة، شعرها ونثرها، فإذا غاب عن أحدهم معنى أرشده إليه من هو عنده حاضر، كما وقع لعمر- ﷺ- لما أشكل عليه معرفة معنى قوله تعالى: (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)[6] فسأل عنه، فقام رجل فقال: هو التنقص، وأنشد في ذلك-كما تقدم-.

وفي هذا المعنى يقول الشاطبي- رحمه الله-، عند تعداده ما يقدم فهم الصحابة،- رضوان الله عليهم-: «أحدها: معرفتهم باللسان العربي؛ فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان، صح اعتماده من هذه الجهة»[7].

وكما أن معرفة الصحابة بلغة القرآن معين لهم على فهم ألفاظه ومعانيه؛ لكونها اللغة المتداولة في عصرهم، المستعملة فيما بينهم، الجارية على عادتهم في الخطاب، فإن هذه اللغة هي التي ينبغي فهم نصوص الشريعة اعتماداً عليها، دون ما طرأ واستحدث عند من جاء فيما يلي عصر الصحابة «استعمالات المتأخرين».

---

(1) مما يشار إليه في هذا قول الرسول- ﷺ- لوابصة بن معبد الأسدي: «استفت قلبك، واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك ثلاثاً».

أخرجه الدارمي في سننه، ج3، ص1649، برقم 2575، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وأخرجه أحمد في مسنده، ج29، ص523، برقم 17999، وص533، برقم 18006، وقال محققه: إسناده ضعيف، وأخرجه أبو يعلى في مسنده، ج3، ص160، برقم 1586، مسند وابصة بن معبد، والطبراني في الكبير، ج22، ص148، برقم 403.

(2) الآية 2 من سورة يوسف- عليه السلام-.

(3) الآية 28 من سورة الزمر.

(4) الآية 195 من سورة الشعراء.

(5) الآية 103 من سورة النحل.

(6) الآية 47 من سورة النحل.

(1) الموافقات، ج4، ص128.

يقول ابن تيمية- رحمه الله-: «ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي- ﷺ-، وعاداتهم في الكلام، وإلا حرّف الكلم عن مواضعه، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك»[1]، ويذكر- رحمه الله- أمثلة لهذا.

ويقول الدكتور الدميجي- أعلى الله درجته- في بحثه القيم، موضحاً أثر لغة الصحابة ومرجعيتها في فهم نصوص الشريعة: «ثم إن اللغة التي ينبغي أن تعد مرجعاً في تفسير القرآن الكريم وفهم نصوصه هي اللغة التي كانت متداولة في عصر التنزيل، دون الالتفات إلى اللغة الحادثة، وما طرأ عليها في العصور التالية من دلالات الألفاظ، مما لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم»[2].

ويجعل- أقر الله عينه- الجهل باللسان العربي من أكبر أسباب سوء فهم النصوص الشرعية، ناقلاً في هذا قول الشافعي- رحمه الله-: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس»[3].

وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة ببحث مستقل عن أثر معرفة معهود العرب ولغة الأميين في فهم النص الشرعي، إن شاء الله- تعالى-.

11- امتاز الصحابة- رضوان الله عليهم- بمزيد حرصهم على طلب العلم وفهم النصوص، فالعمل بما علموا، ومما يدل على هذا:

أ- ملازمة بعضهم للرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- لأجل تلقي العلم، ومشاهدة التنزيل، ومعرفة الوقائع، وفي هذا قول ابن مسعود المتقدم: «والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[4].

---

(2) مجموع الفتاوى، ج1، ص243.

(3) فهم السلف، ص42.

(4) سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ج8، ص268، دار الحديث القاهرة 1427هـ- 2006م، وج10، ص174، ط 3/ مؤسسة الرسالة،1405هـ- 1995م، بإشراف شعيب الأرناؤوط، وانظر: بحث الدكتور الدميجي، ص42.

(1) سبق تخريجه.

ب. أنهم كانوا إذا أشكل عليهم شيء تبينوا وتثبتوا، حتى يعلموا، ويعلموا غيرهم، فهذا عمر تقع له الحيرة من قصر الصلاة مع الأمن، فيسأل الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- عن ذلك، فيخبره «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[1]، وهذا ابن عباس- رضي الله عنهما- يبين لمروان وجه فهم قول الله- تعالى-: **(لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا)**[2]، وقد تقدم قول ابن أبي مليكة عن عائشة- رضي الله عنها-.

ج. أنهم كانوا أحرص الناس على التدبر والفهم، فهذا ابن عمر- رضي الله عنهما- فيما يرويه مالك في موطأِهِ يقيم على حفظ البقرة ثماني سنين يتعلمها[3]، وقد أخذ عنهم التابعون ذلك، فها هو مجاهد يعرض المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، يقف عند كل آية، ويسأل عنها[4].

د. أن حرصهم على العلم إنما كان لأجل العمل، لا مراآة وتصدّراً، فهذا ابن مسعود يقول: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[5]، وهو ما يؤكده أبو عبد الرحمن السلمي بقوله: «حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي- ﷺ- آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»[6]، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، قال أنس:

---

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، ج1، ص478، برقم 686، كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة المسافرين وقصرها.

(3) الآية 188 من سورة آل عمران، وانظر في تخريج الأثر صحيح البخاري، ج4، ص1665، برقم 4292، باب قوله تعالى (لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا)، ومسلم ج4، ص2143، برقم 2778، كتاب صفات المنافقين، باب صفات المنافقين وأحكامهم، وفي الحديث أن مروان بن الحكم سأل ابن عباس -رضي الله عنهما- عن الآية فقال: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي- ﷺ- يهود عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم.

(4) موطأ الإمام مالك، ج2، ص287، برقم 695، باب ما جاء في القرآن، وراجع بحث الدميجي، ص37.

(1) أخرجه الدارمي في مسنده، ج1، ص724، برقم 1159، باب إتيان النساء، وابن أبي شيبة، ج6، ص154، برقم 30287، باب في درس القرآن وعرضه، والحاكم، ج2، ص307، برقم 3105، وقال الذهبي: صحيح على شرط مسلم، وذكره ابن تيمية في مقدمته عن أصول التفسير، ص44، واستدل به الدكتور الدميجي في بحثه، ص38.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره، ج1، ص74، وقال عنه محقق المسند الأرناؤوط: سنده صحيح، انظر: هامش رقم 1 من ج38 ص 466، حديث رقم 23482، من المسند.

(3) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج6، ص212، برقم 2089.

«كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا»[1]، وقد تقدم أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثماني سنين[2].

12- تميز جيل الصحابة بأنه الجيل الذي كثر فيه الخير، وكان غالب أمره الفلاح، فهم السابقون إسلاماً، وجهاداً، ومصابرة، المصطفون لتلقي وحي السماء، المختارون لتقديم الأنموذج للمجتمع المسلم في صورته البشرية، بكل ما تحمله من سموٍّ أخلاقي، لا يعكره ما يقع هنا أو هناك من لوازم الضعف الإنساني، ونواقص الكائن البشري.

وإذا كان أبو الحسن-كرم الله وجهه- قد تحسّر على ذلك الزمان، وتلك العصابة، ولم يمض على العهد بهم من الحجج إلا أربعون أو تنقص قليلاً، فكيف الحال وقد زيد على الأربعين ألف وأربعمائة؟!

تعقيب ومناقشة:

بعد عرض الأدلة على اعتبار فهم الصحابة والتابعين وتابعيهم، أحب التنبيه إلى الآتي:

أولاً: يدخل التابعون وتابعوهم مع الصحابة- رضي الله عن الجميع- في الاعتبار لأفهامهم، ويدل على اشتراكهم- رحمهم الله- مع الصحب الكرام- رضوان الله عليهم- فيما قدمنا من الاعتبار لأفهامهم وأقوالهم، والاعتداد بطرائقهم ومناهجهم في الاجتهاد والاستدلال، ما يأتي:

1- النصوص التي شملتهم مع الصحابة- رضوان الله عليهم- في التزكية والترقية، كقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَاوَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِوَلاَتَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا)**[3]، وقول الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- في فضل هذه الأمة: «خير القرون قرني ثم القرن الذي يليه...»[4].

---

(4) أخرجه أحمد في مسنده، ج19، ص247، برقم 12215، مسند أنس بن مالك، ج19، ص248، برقم 12216، وأصله عند البخاري ومسلم عن أنس بدون الشاهد منه، انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني، ج2، ص270، برقم 2565، مكتبة القدسي القاهرة، 1351 هـ.

(5) انظر: فهم السلف، للدكتور الدميجي، ص37،38.

(1) الآية 10 من سورة الحشر.

(2) أخرجه البخاري ج2 ص 938 برقم 2509 ،كتاب الشهادات باب لا أشهد على جور، ومسلم ج4 ص ص1962برقم2533 كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، وانظر نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد الكتاني ص 199.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، ج4، ص 1961، برقم 2531، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي- صلى الله عليه وسلم- أمان لأصحابه، وبقاء الصحابة أمان للأمة.

2- هم داخلون في الأمان الذي أخبر عنه النبي- ﷺ- بقوله: «أصحابي أمنة لأمتي»[1]، وقد أخبر النبي- ﷺ- أن الصحابة يعيشون إلى مائة عام من الهجرة، وقد كان آخرهم موتاً أبا الطفيل عامر بن واثلة الليثي، يقول ابن حجر- رحمه الله-: «ضبط أهل الحديث آخر من مات من الصحابة، وهو على الإطلاق أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، وكان موته سنة مائة، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة عشر ومائة، وهو مطابق لقوله ﷺ قبل وفاته بشهر: على رأس مائة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها الآن أحد»[2].

3- تتلمذهم على أيدي الصحابة، وأخذهم عنهم العلم والفتوى ومناهج الاستدلال، وطرائق الاستنباط، وقواعد التأويل، فهم الأقرب عهداً وسلوكاً، وبهذا هم داخلون في مفهوم السلف بالمعنى المنهجي، الذي سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن المقصود بالمصطلح.

ثانياً: ليس المقصود من الأدلة التي سبق ذكرها مناقشة حجية قول الصحابي، وهل تجوز مخالفته أم لا، كما جرى عليه الأمر عند علماء الأصول، فليس هنا مجال بحث ذلك، لكن المراد الاستدلال على اعتبار أفهام السلف— رضي الله عنهم— والاعتداد بها، ومراعاتها عند محاولة فقه النص الشرعي، مع وضعها في موضعها من الأدلة المعتبرة الأخرى.

ثالثاً: ذكرت في أدلة الكتاب والسنة أنه قد جاء الوحيان بتزكية الصحابة- رضوان الله عليهم- بإثبات صفة التقوى لهم، وأجبت إجمالاً عن سؤال حول علاقة ذلك بإثبات الاعتبار لفهم الصحابة، وأثره في فقه النص، مؤجِلاً تفصيلاً آن أوانه، وبيان ذلك أن فائدة الاتصاف بالتقوى فيما نحن فيه تتلخص في أمور خمسة:

– أولها: أن التقوى تمنع صاحبها من القول في دين الله بغير علم، ومن الجرأة على الفتوى دونما برهان أو سلطان، فليس لمتقٍ أن يفعل هذا، أو يحوم حول حماه، وبين ناظريه قول إمام المتقين: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار»[3].

– الثاني: أن التقوى تمنع صاحبها من إخفاء ما عنده من علم، أو لبس حق بباطل، أو إيمان ببعض، وكفر بآخر، فأنّى لمتقٍ ذلك وهو يتلو: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً**

(4) فتح الباري، ج7، ص5.

(1) أخرجه الدارمي في مسنده، ج1، ص258، برقم 159، وانظر: كشف الخفاء، للعجلوني، ج1، ص50، برقم 113.

قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَوَلاَيُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِوَلاَيُزَكِّيهِمْوَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[1]، ويردّد: «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[2].

– **الثالث**: أن التقوى مانعة صاحبها من اتباع الهوى بتأويل غالٍ، أو انتحالٍ مبطلٍ، ميلاً مع ريح، أو كسباً لود عامة، أو إرضاءً لذي سلطان زائل، ودنيا فانية، «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله...»[3].

– **الرابع**: أن التقوى تدفع صاحبها إلى أن يستفرغ الجهد والطاقة، ويبذل الوسع في التعرف على مراد الحكيم، دون تهاون أو استعجال أو تبرم، كل ذلك مع حرص على اختيار الأيسر والأصلح والأنسب، وما فيه الرفق، وبه السكينة، وصلاح الحال.

– **الخامس**: أن التقوى تدفع صاحبها إلى عدم التحرج من الرجوع عمّا قال أمسِ، إذا ظهر له ما يدعو إلى نقضه اليوم.

رابعاً: يُلاحظ في النصوص التي جاءت بتزكية الصحابة– رضوان الله عليهم– أنها أثبتت لهم صفات الإيمان والتقوى والجهاد والبذل في أطوار الدعوة والدولة المختلفة، فقد زكتهم وهم المهاجرون، كما زكتهم أنصاراً، ثم فيما تلا ذلك من مراحل، في كل واحدة منها ينزل من حكيم حميد ذكر كتاب مجيد، وينطق بالتزكية لسانٌ صدوقٌ، لا ينطق إلا بحق، في بدر وأحد، والأحزاب والفتح، ويوم هوازن، وساعة

---

(2) الآية 174 من سورة البقرة.

(3) أخرجه ابن ماجه، ج1، ص97، برقم 265، المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، وأحمد في مسنده، ج16، ص293، برقم 10486، مسند أبي هريرة، وج13، ص17، برقم 7571، والطبراني في الأوسط، ج5، ص108، برقم 4815، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، وفي الكبير، ج11، ص182، برقم 10867، وأخرجه الحاكم، ج1، ص182، برقم 346، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

وقد أخرجه أبو داود كذلك، والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم بلفظ «من سئل عن علم فكتمه». انظر: سنن أبي داود، ج2، ص345، برقم 3658، كتاب العلم ، باب كراهية منع العلم، وسنن الترمذي، ج5، ص29، برقم 2649، كتاب العلم ، باب كتمان العلم، وقد تقدم تخريجه عند ابن ماجه وأحمد.

(1) أخرجه البزار، أبوبكر أحمد بن عمرو، تحقيق محفوظ عبد الرحمن زين الله وآخرين ، وإشراف الدكتور عبد الله التركي ج16، ص247، برقم 9422، مسند أنس بن مالك، مؤسسة الرسالة ط1/ 1421هـ–2001م، والطبراني سليمان بن أحمد في مسند الشاميين، ج1، ص344، برقم 599، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405هـ–1984م، والبيهقي في السنن الكبرى، ج10، ص209، برقم 20700، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث، والهيثمي في مجمع الزوائد، ج1، ص140، برقم 601.

العسرة، وهذا إنما يدل على التثبيت والرضا، والمؤازرة والتأييد، واستمرار الرعاية والتربية والعناية، لجيل أراد الله أن يُصنع على عينه.

كما يلاحظ أن النص قرآنيه ونبويه جاء بتزكية الصحابة بالنظر إلى الاعتبارين الزماني والمعنويّ.

فبالنظر إلى الزماني رأينا النص-كما تقدم- يزكي الصحابة في مراحل الدعوة والدولة، وبالنظر إلى الاعتبار المعنوي أو الوصفي رأينا كيف زكى النص كل أهل وصف من الصحابة، تزكية مستقلة خاصة «المهاجرون، الأنصار، أهل البيت، أهل البيعة... إلخ». [1]

خامساً: من كمال تزكية أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أن المولى- ﷻ- أراد، وهو الفعال لما يريد، أن يجعل أعداءه وأعداءهم ينطقون ويشهدون بما شهد الله ورسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- وكفى بشهادتهما شهادة، أراد أن يشهد الأعداء للصحب بصلاح الحال، وجميل الخصال، وكمال المحبة، وصادق المودة، لله ولرسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- ولدينه، يقول المسور ابن مخرمة- رضي الله عنه- في قصة صلح الحديبية: «ثم إن عروة[2] جعل يرمق صحابة النبي- ﷺ- بعينيه، فلما رجع إلى قومه قال لهم: «والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد- ﷺ- محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذاتكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له»[3].

والحق ما شهدت به الأعداء.

الخـاتمـة

يمكن بعد عرض دليلي النظر والخصوصية استنتاج ما مفاده أن دليل النظر قد دل على ما دل عليه دليلاَ النص والأثر؛ من الاعتبار لفهم السلف والاعتداد به في فقه نصوص الغراء، يتأكد هذا بإضافة ما اختص به الصحابة— رضي الله عنهم— من خصائص لم يشاركهم فيها غيرهم، جعلت فهمهم مقدماً على فهوم من عداهم.

---

(2) ينظر الجزء الأول من أدلة اعتبار فهم السلف والمخصص لدليلي النص والأثر.

(1) هو عروة بن مسعود الثقفي، وقد جاء مفاوضاً رسول الله ﷺ في صلح الحديبية.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، ج4، ص974، برقم 2581، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد في الأولين، وصلّ على محمد وعلى أل محمد في الآخرين، وصلّ على محمد وعلى آل محمد في الملأ الأعلى إلى يوم الدين، وصلّ على محمد وعلى آل محمد في نفسك صلاة تخصهم بها دون العالمين، تعلمها أنت، ولا يعلمها أحد سواك.

المصادر والمراجع

أولاً– القرآن الكريم.

ثانياً– الكتب:

1- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر (ابن القيم)، علق عليه وخرج أحاديثه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، ط1، رجب 1423هـ.

2- إعلام الموقعين لابن القيم، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م.

3- تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 1422هـ-2001م.

4- الجامع الصحيح المختصر، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق الدكتور مصطفى البغا، دار ابن كثير ودار اليمامة، بيروت، ط3، 1407هـ - 1987م.

5- الجامع الصحيح سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي.

6- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل البابي الحلبي.

7- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

8- سنن الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ.

9- سنن الدارمي، لأبي عبد الله بن عبدالرحمن، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر، ط1، 1412هـ- 2000م.

10- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ – 1994م.

11- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط1427هـ-2006م.

12- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ-1995م.

13- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسين اللالكائي، تحقيق أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط8، 1423هـ-2003م.

14- – شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية، تحقيق محمد بن رياض الأحمد، ، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425 هـ.

15- شرح النووي على صحيح مسلم، ليحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.

16- شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ.

17- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، والدار السلفية بالهند ط1، 1423هـ-2003م.

18- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ط2، 1392هـ.

19- طبقات ابن سعد، لمحمد بن سعد الهاشمي، الطبقة الخامسة، الجزء المتمم، تحقيق محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق، الطائف، ط1، 1414هـ-1993م.

20- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الهاشمي المعروف بـ(ابن سعد)، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ-1990م.

21- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وإشراف محب الدين الخطيب، وتعليق عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، 1973م.

22- فهم السلف للنصوص الشرعية، حقيقته وأهميته وحجيته، للدكتور عبد الله بن عمر الدميجي، مركز بحوث ودراسات البيان، إصدار رقم 135، ط1431هـ.

23- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي القاهرة، 1351 هـ.

24- الكفاية في علم الرواية، لأحمد بن علي بن ثابت (أبو بكر الخطيب البغدادي)، تحقيق أبي عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

25- مجمع الزوائد ومبلغ الفوائد، لعلي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414هـ-1994م.

26- مجموع الفتاوى لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط 1416هـ-1995م.

27- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ-1990م.

28- مسند أبي يعلي أحمد بن علي المثنى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1404هـ-1984م.

29- مسند الإمام أحمد، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرين، وإشراف الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ-2001م.

30- مسند البزار، لأبي بكر أحمد بن عمرو، تحقيق محفوظ عبد الرحمن زين الله وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1988 – 2009م.

31- مسند الشاميين، لسليمان بن أحمد الطبراني، بتحقيق حمدي بن عبد المجيد، مؤسسة الرسالة، ط1، 1405هـ-1984م.

32- مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409هـ.

33- معجم الطبراني الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

34- المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبدالمجيد، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط2، 1404هـ-1983م.

35- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط 1400هـ-1980م.

36- الموافقات، للإمام الشاطبي، إبراهيم بن موسى، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ-1997م.

37- الموطأ، للإمام مالك، برواية محمد بن الحسن، تحقيق عبد الوهاب عبداللطيف، المكتبة العلمية، ط2، دون تاريخ.

38- نظم المتناثر من الحديث المتواتر، لمحمد بن جعفر الكتّاني، تحقيق شرف حجازي، دار الكتب السلفية، مصر.

ثالثاً– بحوث منشورة على مواقع الشبكة الدولية:

39- فضائل الصحابة، للدكتور نايف الحمد، وهو بحث منشور على شبكة المعلومات الدولية.